الزهد والثورة في شعر الخوارج

asceticism and revolution in the poetry of Kharijites

د.علي بوزيان[1]
الأكاديمية الجهوية للتربية و التكوين لجهة فاس مكناس–المغرب

الملخص :أسهمت الحياة السياسية بدءا من مرحلة صدر الإسلام، في بزوغ تجربة جديدة في الشعر العربي يمكن وسمها بالتجربة السياسية، ويقصد بها التوحيد بين الشعر والفكر، حيث صارت العملية الشعرية بمثابة وعاء حامل لفكر الشاعر السياسي ولقناعاته المذهبية. فانقسم الشعراء بانقسام الأحزاب والفرق التي أفرزتها الحياة السياسية، واختلفت ولاءات الشعراء بين الزبيريين والأمويين وشيعة على والخوارج.

ومن هذا المنطلق يسعى هذا البحث إلى دراسة شعر الشراة باعتباره أدبا زهديا ثوريا بامتياز، عن طريق مقاربة التجليات المختلفة لهاتين التيمتين، وكذا تفسير هذا الميل نحو قيمتي الثورة والزهد وما يصدر عن ذلك من دلالات رمزية.

الكلمات الدالة: الخوارج، المذهب، الشعر السياسي، الزهد، الثورة

Abstract Political life has contributed at the beginning of Islam to the émergence of political experience in Arabic poetry.this implies that poetry and thought are mixed si that poetry is a verser to the potes thought and doctrinal convictions.poets were clustered into fractions as dictated by political life.Allegiances among poets fit into Zubairis,Umayyad,Shiah-I-Ah,or Kharijites

This research aims at studying the poetry of Kharijites as an art expressing asceticism and révolution by approaching the different manifestations of these traits.the research aims at Also explaining this predilection toward the values of asceticism and revolution as well as what symbolic meanings that happen to show up.

Keywords : Kharijites, doctrine, political poetry, asceticism, revolution

[1]– اسن الباحث المرسل : د.علي بوزيان، الأكاديمية الجهوية للتربية و التكوين لجهة فاس مكناس– المغرب. البريد الالكترون:Tazroote@Gmail.Com

تقديم

كان لمجيء الإسلام أثر بالغ في توجيه النص الشعري العربي، ونقله من بناء منظوم موسوم بتقاليد فنية متوارثة، إلى إبداع متفاعل مع روح العصر، ومتناغم مع متغيراته الاجتماعية والسياسية والدينية ،فانتقلت بذلك العملية الشعرية من الاهتمام بالبناء الفني الذي كان يحرص عليه الشاعر الجاهلي، إلى محاولة الانفتاح على متغيرات العصر أيان كان نوعها، فبرزت بذلك مطروقات شعرية جديدة ارتبطت أساسا بالدعوة الإسلامية كالرد على شعراء المشركين، والتغني بالقيم الاسلامية السمحة، إضافة إلى مدح الرسول الكريم....

ولئن كان الدرس النقدي يلمح في الشعر الجاهلي صفته الاجتماعية فإن ذلك مفاده أن الشاعر الجاهلي كان يقول ما يعرفه المتلقي سلفا كأن يقول عاداته وتقاليده وأيامه المشهورة، وكان ذلك بمثابة تقليد فني متوارث يراعى بشكل معياري في حضرة الإبداع الشعريإضافة إلى الالتزام بضوابط بنية القصيدة كالبدء بالوقوف على الطلل ثم وصف الرحلة وصولا بعد ذلك إلى عرض القصيدة الرئيس،هذا فضلا عن الالتزام بالذوق العام الذي كان شرطا لا مندوحة عنه على مستوى التصوير البياني.

أما بعد مجيء الإسلام فقد مال الشاعر إلى مواكبة المستجدات التي بات يفرضها واقعه الجديد سواء أكان ذلك مرتبطا بالدين أم بالسياسة،و قل بذلك مبدأ الالتزام بنهج القدماء في القول الشعري. وقد استمر التفاعل بين النتاج الشعري ومتغيرات الواقع حتى استد ونضج ابان العصر الأموي الذي عرف ميلاد الشعر السياسي بشكل ناضج و بارز.

وقد كان لما حفل به هذا العصر من أحداث سياسية بارزة خصوصا ذاك الصراع الذي كان بين بني امية من جهةو خصومهم السياسيين الزبيريين و الخوارج وشيعة علي من جهة ثانية،الأثر الكبير في ظهور تجربتين شعريتين" الأولى أسميها التجربة الذاتية وأعني بها إعطاء الأولية للعالم الداخلي، عالم العواطف والرغبات والأهواء... والثانية هي التجربة السياسية وأعني بها التوحيد بين الشعر والفكر" .[1]

[1]- ينظر، أدونيس، الثابت والمتحول، الأصول، دار العودة، بيروت ط 2 1979، ص502

وإذا كانت بذرة الشعر السياسي قد نشأت في مرحلة صدر الإسلام حين احتدم الصراع بين شعراء الدعوة وشعراء قريش فإن هذا اللون الشعري سيستد وجوده ويبرز اتجاهه خلال العصر الأموي عندما ظهرت الأحزاب السياسة وتعددت الفرق الدينية، ولم يعد ولاء الشاعر وقفا على قبيلته بل صار مرتبطا بمذهبه السياسي وقناعاته الفكرية وميولاته الإيديولوجية، فانقسم الشعراء بذلك بين مؤيد للزبيريين، ومنافح عن الأمويين، ومدافع عن الخوارج.

وقد عرف عبيد الله بن قيس الرقيات بدفاعه عن الزبيريين وإن كان من سار على شاكلته قليل، بينما مال الحكام الأمويون، وقد عرفوا بالقدرة على سياسة الناس سواء بالشدة أو بالمال، إلى تقريب الشعراء والإغداق عليهم بالأعطيات، خاصة عبد الملك بن مروان الذي سمى الأخطل شاعر بني أميه لإجادته في مدحه، وبراعته في التودد إلى أولى الأمر من الولاة.

أما الاتجاه السياسي الثالث، فهو الذي انتهجه شعراء الخوارج وكان مختلفا عن الفريقين السابقين، كما جاءت مضامينه صدى لمبادئ الشراة وفكرهم ومذاهبهم. وإذا كان شعر من أخلص ولاءه للزبيريين أو الأمويين متشابها من حيث ميله إلى المدح والفخر، فإن شعراء الخوارج قد سلكوا بالقصيدة العربية مسارب مختلفة، وابتدعوا مواضيع جديدة كالحض على الحرب، وتكفير الخصوم وإبداء الاقتناع بالحركة الخارجية، وغيرها من المطروقات. وقد سار على هذا النهج شعراء كثر نذكر في مقدمتهم عمران بن حطان وقطري بن الفجاءة.

ويسعى هذا البحث إلى مقاربة تجربة الخوارج الشعرية من زاوية موضوعاتية. فبعد العودة إلى هذا الموروث الشعري قراءة و نظرا، تبين أنه لون شعري زهدي ثوري،لذلك اثرنا دراسته من خلال استقراء شواهد شعرية حية تبرز هاتين التيمتين : الزهد و الثورة و ذلك من خلال محاور أربعة:

- اولا: التأطير التاريخي للخوارج باعتبارهم حركة سياسية نشأت وفقا لمسببات سياسية صرفة
- ثانيا : مقاربة ظاهرة الزهد في شعرهم من خلال مرتبتين اثنتين هما الحياة و النفس.و ما يمكن أن يستفاد من ذلك من معان و خلاصات معللة.
- ثالثا: الوقوف عند دوافع الفعل الثوري و تمظهراته في شعرهم و محاولة تفسيره بناء على مقولات الفكر الثوري النقدية .
- رابعا:إبراز مكانة شعر الخوارج ضمن حركية الشعر السياسي الاموي و ذلك من خلال مقارنته بشعر الأحزاب السياسية الأخرى : بني أمية، و شيعة علي،و الزبيريين.

1) **حركة الخوارج: النشأة والوجود:** إن دراسة شعر الخوارج، يتطلب منا العودة إلى مظانه ووضعه في سياقه الذي أطره، ومقاربته وفق المتغيرات المقامية التي أنتجته.

ولعل أول ما يثير سؤال الخصوصية في هذه التجربة هو التسمية ذاتها" الخوارج"، وتعود كما هو معلوم إلى ذاك الخروج الأول سنة سبع وثلاثين هجرية (37هـ) خلال وقعة صفين والتي جمعت بين جيش العراق بقيادة علي بن أبي طالب وجيش الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان، والخوارج تبعا لذلك هم تلك الفرقة التي انشقت عن علي رضي الله عنه بعد قبوله مسألة التحكيم في الخلاف السياسي المعروف بينه وبين معاوية، وهو الأمر الذي لم تستسغه هذه الحركة، معتبرة أن حكم القرآن واضح وبين في مسألة الخروج على الحاكم، ولا حكم للرجال فيها، ومن هنا برز شعار الخوارج المشهور" لا حكم إلا لله ."

ولما فشلت مسألة التحكيم بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، كتب علي إليهم يسترضيهم ويدعوهم إلى الاصطفاف معه من جديد لقتال معاوية، فقبلوا ذلك منه بشروط مضنية ما كان علي ليقبلها، وبعثوا إليه مخيرين " إنك لم تغضب لربك، وإنك غضبت لنفسك فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك وإلا نابذناك على السواء إن الله لا يحب الخائني[1]

[1] الطبري أبو جعفر محمد بن جرير،تاريخالطبري،تاريخ الرسائل و الملوك،دار المعارف بمصر،ط2،ص 78.

كان تكفير الخوارج لعلي رضي الله عنه نقطة تحول حاسمة في الخصومة الدائرة بينهما: فقد كانت البداية بسبب خلاف سياسي حول قرار(قبول التحكيم) قد يخطئ فيه المرء أو يصيب، ثم سرعان ما تطور الامر إلى غلو في التأويل وعصبية في الرأي و النظر بلغت حدتها الإقدام على تصفية علي،" وتجمع المصادر على أن مقتل علي بن أبي طالب جاء إثر اتفاق بين الخوارج في مكة يقضي بقيام ثلاثة عناصر وهم عبد الرحمان بن ملجم المرادي والحجاج بن عبد الله الصريمي وعمرو بن بكير التميمي، باغتيال الثالوث الذي كان وراء انقسام المسلمين...علي ومعاوية وعمرو بن العاص. [1]"

ورغم اجتماع رأي الخوارج على تكفير علي، إلا أن الخلاف سرعان ما دب إليهم حول مسائل أخرى تتعلق بمذهبهم كحكم القعود عن الهجرة إليهم، والحكم على مخالفيهم وكذا حكم الزاني المحصن وغيرها من المسائل الخلافية، التي زعزت كيان الخوارج ومالت بهم إلى الانقسام الى سبع فرق كبرى هي المحكمة الأولى والأزارقة والنجدات والصفرية والعجاردة والإباضية والثعالبة.

وتتصاقب هذا الفرق جميعها في ملامح مشتركة لعل أبرزها الغلو في الدين والخروج عن الجماعة واستباحة دماء المسلمين. وكانت فرقة الأزارقة أشد هذه الفرق تكفيرا وأكثرها ميلا إلى التطرف.

شعر الخوارج بين الزهد والثورة:

لم يكن شعر الخوارج إبداعا من أجل الابداع فحسب، بل إنه تجاوز ذلك إلى كونه شعرا ملتزما بمبادئ الحركة الخارجية وتوجهاتها فطغت عليه بذلك مجموعة من المضامين المرتبطة بالحركة نفسها، وتتمثل أساسا في قيمتي الزهد والثورة وما يدور في فلكهما من مضامين جزئية كالتمرد والحض على الحرب والخروج عن الجماعة، وهي كلها مواضيع تمثل مذهب الخوارج ونهجهم و تعكس بجلاء طموحاتهم السياسية.

[1] لطيفة البكاي،حركة الخوارج نشأتها و تطورها إلى نهاية العهد الأموي، دار الطليعة بيروت،ط1، 2001، ص 53

2) الزهد في شعر الخوارج:

الزهد في اللغة هو خلاف الرغبة ونقول زهد فيه أي أعرض عنه وتركه ويقال" زهد في الدنيا ترك حلالها مخافة حسابه وترك حرامها مخافة عقابه"[1] وجاء في مختار الصحاح" الزهد ضد الرغبة، تقول زهد فيه وزهد عنه وزهد أيضا وزهد يزهد بالفتح فيهما زهدا وزهادة لغة فيه والتزهد التعبد".[2] وجاء في لسان العرب" والزهد ضد الرغبة والحرص على الدنيا والزهادة في الأشياء كلها ضد الرغبة".[3]

أما اصطلاحا فالزهد هو الانصراف عما مالت إليه النفس وكان مرغوبا فيه، ولا يكون الانصراف عن الشيء زهدا إلا إذا كان المرغوب عنه مرغوبا فيه، أما إذا كان غير مرغوب فيه وتم الإعراض عنه فلا يسمى ذلك زهدا، ولعل هذا ما عبر عنه ابن الجوزي بقوله " الزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوبا فيه بوجه من الوجوه".[4]

من خلال هذا التحديد نستنتج أن هناك تصاقبا دلاليا بين الزهد والورع فكلاهما قائم على الأعراض عن الشيء والانصراف عنه لعلة من العلل، إنما الأول ابتعاد عما هو زائل ولا ينفع صاحبه في الآخرة كالزهد في الحياة والزهد في المكروه بينما الثاني أي الورع ترك ما يخشى ضرورة في الآخرة، فالأصح إذن أن نقول في ترك ما نهي عنه ورعا لا زهدا.

وينقسم الزهد أقساما ومراتب مختلفة تختلف باختلاف درجة المرغوب عنه، كالزهد في الدنيا، والزهد في المكروه والزهد في النفس وهو أشق أنواع الزهد على الزاهد.

وإذا نحن أمعنا النظر في الموروث الشعري الخارجي، وجدناه يحتفي بتيمة الزهد، وخاصة الزهد في الدنيا والزهد في النفس، وقد سمي الخوارج بالشراة ومفاد ذلك في اعتقادهم ومذاهبهم أنهم باعوا الله أنفسهم ابتغاء مرضاته ورضوانه، ويفتخرون بذلك

---

[1] الإمام وكيع بن الجراح،كتاب الزهد،ج1،مكتبة الدار،ط1، 1984م ص 124

[2] عبد الله بن المبارك المزوري،الزهد والرقائق،مج1، دار المعراج الدولية،ط1، 1995م، ص 10

[3] المصدر السابق ص 10

[4] وكيع بن الجراح،كتابالزهد،ص 123

ويتباهون به، ويعتبرون أن قوله عز وجل" إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله" التوبة 111" منطبق عليهم. وهم في مقابل هذا المعنى يزعمون أن خصومهم يقاتلون من أجل الأعطيات والمال، وقد دأبوا على نعتهم بذوي الجعائل.والجعالة أو الجعلية هي الأجرة أو الرشوة، ولقد ألمع عيسى بن فاتك الحبطي وهو خارجي من بني تيم اللات بن ثعلبة، إلى هذه التسمية في وصفه لمعركة بآسك التي انتصر فيها الخوارج قائلا.[1]

فلما أصبحوا صلوا وقاموا إلى الجرد العتاق مسومينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم فضل ذوو الجعائل يقتلونا

إن ميل الخوارج إلى الإعراض عن الدنيا، والانصراف عن ملذاتها كان أساسا في طريقتهم وركنا في مذهبهم، وقد عبروا عنه في أشعارهم واحتفوا به في خطبهم، و عرف قطري بن الفجاءة، شاعر الأزارقة وفارسهم و خطيبهم بإقدامة في الحرب وفصاحته في الشعر، وزهده في الدنيا، وقد وصف مقتل نافع بن الأزرق قائد الخوارج في معركة يوم دولاب زاهدا ومفتخرا.[2]

لعمرك إني في الحياة لزاهد وفي العيش ما لم ألق أم حكيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت طعان فتى في الحرب غير ذميم

ويعد قطري بن الفجاءة آخر زعماء الخوارج الأزارفة الأشداء اشتهر ببأسه وجلده على القتال كما كان شاعرا بليغا وخطيبا مفوها مفلقا، قتل سنة سبع وسبعين للهجرة على يد المهلب بن أبي صفرة بعد وقائع كثيرة بينهما، فأرسل رأسه إلى الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان آنذاك واليا على العراق.

وكان يؤخذ على قطري زهده في الدنيا واعراضه عنها بل وكان يعير بذلك من طرف خصومه الأمويين. وقبل أن يرسل الحجاج بن يوسف بجيش المهلب لقتاله، بعث إليه بكتاب يدعوه فيه إلى ترك مذهبه والعودة إلى طاعة الله آخذ عليه شظفه في العيش وسوء

[1] علي جفال،الخوارج تاريخهم و أدبهم،دار الكتب العلمية بيروت،ط1، 1990م، ص 127
[2] المرجع السابق،ص 121

حاله:" إنك مرقت مدا الدين مروق السهم من الرمية وقد علمت حيث تحرثمت وذاك أنك عاص لله ولولاة أمره غير أنك أعرابي جلف أمي تستطعم الكسرة وتستشقي بالثمرة". [1]

وأجابه قطري غير آبه ولا منكر" كتبت إلي تذكر أني اعرابي جلف أمي أستطعم الكسرة واستشقى بالثمرة ولعمري يا ابن ام الحجاج إنك لمتيه في جبلتك مطلخم في طريقتك واه في وثيقتك لا تعرف الله ولا تجزع من خطيئتك..فالحمد لله الذي لو شاء أبرز لي صفحتك وأوضح لي صلعتك فوالذي نفس قطري بيده لعرفت أن مقارعة الأبطال ليس كتصدير المقال"[2]

يبدو واضحا من خلال رد قطري أنه لم ينف ما وصفه به الحجاج من زهد وشطف العيش لكنه يقر بذلك و لا ينكره و ما الفعل "تذكر" إلا دلالة على أن قطريا عرف بزهده في الدنيا و إعراضه عنها و لكن، و بموازاة ذلك عمد ابن الفجاءة الى تكفير الحجاجوالطعن في نسبه دون أن ينسى إبراز شجاعته التي ينتقدها ابن يوسف.إذ لم يكن الحجاج رجل حرب كقطري بن الفجاءة لكنه كان رجل سياسة بحق،تسبق دسيسته رأيه.ولا نعتقد أن الحجاج قد كتب إلى ابن الفجاءة يرجو حقا رجوعه عما هو فيه لكنه تقصد إغضابه و تعييره أخذا عليه حجة قتاله.

إن التعبير عن الزهد في الدنيا في شعر الخوارج وازاه من جهة ثانية ملازمة، ذم من يهتم بالحياة ويقبل عليها وذاك ما نقرؤه في قول عمران بن حطان شاعر فرقة الصفرية متعجبا ممن يتزود لدنياه وينساخرتهإذ يقول.[3]

حتى متى تسقى النفوس بكاسها
ريب المنون وأنت لا ترتع
فتزودن ليوم فقرك دائبا

[1] الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر،البيان و التبيين،ج2، مكتبة الخانجي بالقاهرة،ط7، 1998م، ص 310 بتصرف.

[2] المصدر نفسه،ص 310،311 بتصرف.

[3] إحسان عباس،شعر الخوارج، دار الثقافة بيروت،ط2، 1974م، ص 24

واجمع لنفسك لا لغيرك تجمع

والملاحظ أن نقد الحياة في الشعر الخارجي هو نقد موجه لذوي الثراء من خصوم الخوارج، ونقد لمن يقاتلهم بدافع المال والغنيمة، فقد كان الخوارج يؤمنون أن حكام بني أمية يسوسون الناس بالجعائل ويحفزون جندهم بالعطاء المغدق، وذلك سبب شدتهم وبأسهم وجلدهم، وقد ألمع عمران بن حطان الى هذا المعنى متهكما وساخرامن جند الأمويين، وحبهم الكبير للمال مبرزا أن ولاءهم للأعطيات لا لغيرها.[1]

فلو بعثت بعض اليهود عليهم يؤمهم أو بعض من قد تنصرا
لقالوا رضينا أن أقمت عطاءنا وأجريت ذلك الفرض من بر كسكرا
وقال أيضا مؤاخذا الفرزدق على اشتغاله بالمدح بهدف التكسب[2]
أيها المادح العباد ليعطي إن لله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم وارج فضل المقسم العواد
لا تقل الجواد ما ليس فيه و تسم البخيل باسم الجواد

كان لشعر عمران بن حطان الأثر البالغ في نفوس الخوارج وخاصة من كان منهم على مذهب الصفرية، لذلك لم يغفل الحجاج بن يوسف التقفي، والي العراق، أمره فطارده لسنوات عدة، وعاش عمران حياته متنقلا وهاربا من موضع إلى آخر مخافة بطش الحجاج، ولما بلغة أن شبيبا(وهو من زعماء الخوارج) وزوجته غزالة قد هاجما الحجاج في مقر ولايته بالعراق وأنه لم يقو على مواجهة غزالة، قال فيه.[3]

أسد علي وفي الحروب نعامة ربداء تجفل من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر .

لم يكن الزهد في أدب الشراة مرتبطا بالحياة فقط، بل شمل أيضا مرتبة النفس وذلك أشق أنواع الزهد، فقد كان الخارجي يؤمن أنه وهب الله نفسه، ابتغاء مرضاته ولم يكن تبعا لذلك

[1] المرجع السابق، ص 26
[2] ناحية الوريمي بوعجيلة، الإسلام الخارجي، دار الطليعة بيروت، ط1، سبتمبر 2006 ، ص 196.
[3] علي جفال تاريخ الخوارج و أدبهم، ص 105

يهاب موتا أو يخشى خصما، ونجد هذا المعنى في شعر العيزار بن الأخنس الطائي في معركة النهروان التي انهزم فيها الخوارج أمام جيش علي هزيمة قاسية حيث قال متحسرا.[1]

ألا ليتني في يوم صفين لم أؤب وغودرت في القتلى بصفين ثاويا

وقطعت أرابا وألقيت جثة و أصبحت ميتا لا أجيب المناديا

يظهر من خلال هذين البيتين أن الشاعر يتحسر ويتألم لأنه شهد موقعه النهروان، وتمنى لو حاق به الموت قبلها، حتى ولو قطعت جثته فإن ذلك لا يضيره، لأنه ينطلق من قناعة تقوم على بذل النفس لله عز وجل حتى تهون فلا يلتفت إليها.

ويبدوأن الميل إلى الزهد بمراتبه المختلفة و تعبيراته المتباينة ينطويعلى بغض للدنيا.فملذاتها زائلة ،و شهواتها زائفة، و تصاريفها لا تؤمن فاجعتها.فكان الزهد في نظر الخارجي موقف من الحياة و مما تعج به من متناقضات تقض مضجعه كالجور،و الكفر، و التعلق الشديد بالدنيا...وهي كلها صفات كان الخارجي يراها في خصومه ماثلة ثابتة، لذلك كانت الثورة بالنسبة إليه أداة للتغيير، و سبيلا لنشر ما رأوه صوابا و رآه خصومهم السياسيون خطأ.

3) الثورة في شعر الخوراج

الثورة من الفعل ثار يثور أي هاج.جاء في معجم لسان العرب لابن منظور" ثار الشيء ثورا وثورانا وتثور: هاج... والثائر الغضبان ويقال للغضبان أهيج ما يكون: قد ثار ثائره وفار فائره إذا غضب وهاج غضبه".[2]

يبدو من خلال هذا التحديد اللغوي أن الثورة حالة هيجان تستبد بالغاضب لسبب من الاسباب، أما من حيث الاصطلاح، فالثورة لفظ سياسي يفيد التحول الذي يطرأ على تدبير ما أو نظام سياسي معين فيحل محله تدبير جديد أو نظام سياسي آخر مختلف عنه، فالثورة بهذا المعنى خروج عن نظام قائم والسعي وراء إحلال نظام آخر محله

[1] إحسان عباس،شعر الخوارج،ص 32

[2] ابن منظور الافريقي،لسان العرب،مج1، دار المعارف،تحقيق عبد الله علي الكبير،محمد أحمد حسب الله هاشم محمد الشادلي،ص 521

يكون بديلا عنه تفرضه الضرورة السياسية أو الحتمية الناتجة عن التطور الطبيعيللأحداث والوقائع.

وقد أشار أفلاطون قديما إلى أن الثورة " تحول شبه طبيعي في شكل من أشكال الحكومة إلى شكل آخر"[1]، أما المؤرخ اليوناني بوليبيوس (200-118ق.م) الذي أرخ لفتوحات روما وسيطرتها على العالم، فرأى أن الثورة هي الدورة المحددة المتكررة التي تحكم الشؤون الإنسانية لأنها مدفوعة دائما نحو الحدود القصوى".[2]

اهتداء بهذين التحديدين الأخيرين، نستشف أن الثورة تحول طبيعي في طريقة الحكم، أو في شكل التدبير السياسي، تفرضه الحتمية التاريخية وتراكم الوقائع بشكل سببي.

إن النظر في تاريخ الدولة الاسلامية، يسلمنا إلى أن الثورة الفعلية ابان الخلافة الراشدية، بدأت إرهاصاتها بتولي عثمان بن عفان رضي الله عنه للخلافة. فكان هذا الحادث مثار خلاف، كما أن تدبيره لشؤون المسلمين جعله أقرب إلى قريش من عمر، للينة أولا ولشدة الفاروق ثانيا، وهذا ما أسفر عن تفاقم حالة السخط والاحتقان اللذين سيفضيان فيما بعد إلى حادث اغتياله فكان بعد ذلك ما كان من أحداث وانقسامات....

إن هذه الأحداث السياسية المختلفة لم تغير مجرى التاريخ كما يمكن يرى البعض، بل إنها عادت به إلى مرحلة من مراحل دورته الطبيعية، فاستمر وفق ما تقتضيه حتمية الشؤون الإنسانية و مقتضيات السنن الإلهية التي تعد غير قابلة للتغيير.

وبناء على هذا الإيضاح، يمكن القول إن الموروث الشعري الخارجي كان ثوريا بامتياز لأنه انعكاس لمذاهب متمردة وصدى لأصوات ثائرة قامت على ثقافة الرفض: رفض التحكيم، رفض الحكم الأموي، رفض الحياة، رفض الاختلاف،... دعا من خلاله الخوارج إلى إشهار مذاهبهم المختلفة، وإعلان الخروج عن الجماعة.

---

[1] حنة أرندت،في الثورة،ترجمة عطا عبد الوهاب،مراجعة رامز بورسلان،إعداد المنظمة العربية للترجمة،توزيع مركز دراسات الوحدة العربية،ط1، بيروت، 2008م،ص 27

[2] المرجع السابق ص27

ونجد هذه الدعوة صريحة في شعرهم فهذا عبد الله بن وهب الراسبي يدعو إلى الثورة مرتجزا[1]

1- أنا ابن وهب الراسبي الشاري

2- أضرب في القوم لأخذ الثار

3- حتى تزول دولة الأشرار

4- ويرجع الحق إلى الأخيار

وعبد الله بن وهب الراسبي هذا من زعماء الخوارج الذين انشقوا عن علي بن أبي طالب، أما ابن أبي مياس المرادي فيقول في قتل علي رضي الله عنه.[2]

ونحن ضربنا يا لك الخير حيدرا أبا حسن مأمومة فتفطرا

ونحن حللنا ملكه من نظامه بضربة سيف إذ علا وتجبرا

ونحن كرام في الصباح أعزة إذا الموت بالموت ارتدى وتأزرا

إن مبدأ الخوارج المشهور" لا حكم إلا لله، يبرز أمرين اثنين: أولهما وضوح المنطلق، فقبول التحكيم عندهم كان موجبا للتكفير، وثانيهما التطرف والغلو في الدين، ويبدو ذلك جليا في عدم قدرتهم على قبول الاختلاف و مغالاتهم في إظهار العداء لمخالفيهم.

وقد عبر فروة بن نوفل عن رفض التحكيم بقوله[3]

نقاتل من يقاتلنا ونرضى بحكم الله لا حكم الرجال

هذا وكثر في شعر الخوارج الحض على الثورة، وإذكاء حماسة القتال لدى الشراة، وكان ذلك سبيلا لنشر توجههم وإيذانا بمواجهة مخالفيهم، وقد عظم أمرهم أيام كان العراق في حكم الزبيريين، أو حتى في زمن بعض ولاة بني أمية كبشر بن مروان وخالد بن عبد الله.

وفي هذا السياق نقرأ في شعر قطري بن الفجاءة وصفه لضعف خالد بن عبد الله.[1]

---

[1] إحسان عباس ،شعر الخوارج،ص 32

[2] المرجع السابق ص 35

[3] علي جفال،الخوارج تاريخهم و أدبهم،ص 61

ألم يأتها أني لعبت بخالد وجاوزت حد اللعب لولا المهلب
وأنا أخذنا ماله وسلاحه وسقنا له نيرانها تتلهب

يظهر من خلال هذين البيتين فخر قطري بقوة الازارقة و شدتهم إبان اغارتهم على البصرة في زمن خالد بن عبد الله،أحد ولاة عبد الملك بن مروان.و يظهر من هذا الوصف ان ولاة بني أمية لم يفلحوا في حماية العراق من خطر الخوارج و خاصة عندما كان بشر بن مروان و خالد بن عبد الله واليين على العراقين الكوفة و البصرة.

وبدأ نجم الخوارج في الأفول بعد أن ولي الحجاج بن يوسف الثقفي أمر العراق، فجيش الجيوش وجعل على رأسها المهلب بن أبي صفرة الذي عرف بفطنته ودهائه، فشرع في مواجهتهم إلى أن قهرهم وأخرجهم من ديارهم في كرمان وطبرستان وغيرها من الأصقاع فزاد بعد ذلك تفرقهم تفرقا.

صحيح أن الاستناد إلى الرواية التاريخية يسهم في فهم كرونولوجي لمبررات حضور البعد الثوري في شعر الخوارج وأدبهم، لكنها تبقى قاصرة عن تقديم اجابات شافية لهذا المنزع العنيف في توجه أدباالشراة، ومن ثم فإننا نرى أن الخلاف السياسي الذي أدى إلى ثورة الخوارج كان ظاهره مسألة التحكيم، أما جوهره فيتمثل في "المصلحة" التي هي الحاكم في الأمور السياسية كما يقول أرسطو.

إن قبول علي رضي الله عنه للتحكيم، شكل لدى الخوارج أزمة مصلحة سياسية سيما وإن إرهاصات الخروج بدأت منذ عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد كان أحب إلى قومه، وأخذ عليه توليته المقربين منه، وفي ذلك هدر لمطامع الكثيرين ممن كانوا يرون أنفسهم أحق ممن أعطي له الحق.

فالثورة إذن، في شعرهم، تعبير عن رفض وضع قائم رأوا فيه استئثار طبقة بالسلطة دون إشراكهم.

[1]إحسان عباس ،شعر الخوارج، ص 113

4) ملامح الاختلاف بين الشعر الخارجي و الشعر السياسي الاموي:

لم يحتف الشعر السياسي في العصر الأموي بالانتماءات الحزبية فحسب ، بل إنه كان يعكس بدقة تصورات الأحزاب و تمثلاتهم للخلافة.فكان لكل حزب سياسي منظوره الخاص للحكم و السلطان،و انعكس هذا الاختلاف على العملية الشعرية التي كانت بمثابة وعاء يحوي كل هذه التصورات و المواقف و التمثلات.

ويتشابه حزبا بني أمية و الزبيريين في اعتبار الخلافة شرفا و امتيازا، وإن كان الامويون يربطون هذا الامتياز بالقوة.و تتأتى هذه القوة من سلطان واسع، و خليفة قوي فصيح كسيد جاهلي إضافة إلى حياة الترف و البذخ ووفرة المال.و نلفي هذا التوصيف في شعر ابي العباس الاعمى حيث يقول:[1]

أبني أمية لا أرى لكم شبها إذا ما التفت الشيع
الله اعطاكم و إن رغمت من ذاك معشر رفعوا
أطمعتم فيكم عدوكم فيما بهم في ذاكم الطمع

يصور الشاعر في هذه الأبيات ما أنعم به الله عز وجل على بني أمية رغم كيداعدائهم: سلطان و مال و قوة.أما بالنسبة للزبيريين فيربطون بين شرف الخلافة و الافتخار بالانتماء القبلي القرشي.ونجد هذا التمثل للخلافة في شعر عبيد الله بن قيس الرقيات الذي اشتهر بمدح الزبيريين وخاصة مصعبا الذي كان واليا على العراق قبل أن يؤول إلى الحكم الاموي، حيث يقول معتزا بقرشيته و بموطنه الحجاز، وكأن به حنينا إلى الزمن الذي كانت فيه قريش سيدة القبائل العربية[2]

حبذا العيش حين قومي جميع لم تفرق أمورها الأهواء
قبل أن تطمع القبائل في مل ك قريش و تطمع الأعداء
إن تودع من من البلاد قريش لا يكن بعدهم لحي بقاء

[1] سهير القلماوي،أدب الخوارج في العصر الاموي، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، 1940 ، ص 141، 142 بتصرف.
[2] المرجع السابق، ص 148

إذا كان الامويون والزبيريون قد رأوا في الخلافة حقا لاعتبارات متباينة فإن الشيعة"قد صبغت الخلافة أو معنى الخلافة الديني بصبغة الملك الوراثي وحاولت أن تطبقه في صورته الجديدة طوال العصر الاموي"[1].

أما الخوارج فيختلفون عن هذه الأحزاب كليا في منظورهم لمسألة الخلافة.فهي ليست حقا او شرفا كما يتصورها الزبيريون أو كما يدعي الامويون، ولا ملكا وراثيا كما يعتقد الشيعة، بل هي واجب مضن و عبء ثقيل لا يستهان به،لذلك بحثوا" في متى يكفر الإمام و متى يجب خلعه و بما يستوجب القتل، ولم يبحثوا في من أولى بالخلافة لأن كل مسلم له هذا الحق مادام قادرا دون غيره على القيام باعبائها على الوجه الأكمل"[2].

من هذه المعطيات مجتمعةنستنتج أن الصراع حول الخلافة تصوريا وواقعياشكل أساسا متينا للخلاف السياسي و العقدي بين الأحزاب السياسية.فاكتسى بذلك الابداع الشعري صبغة قناة وظيفية لتشكيل وعي الذوات الاجتماعية قصد تكريسوجود التجربة السياسية على نحو مخصوص.

خاتمة:

بناء على ما تقدم، نخلص إلى أن شعر الخوارج يحتفي بتيمتي الزهد و الثورة بشكل لافت.و تحضر الاولى في شعرهم من خلال مرتبتين اثنتين هما مرتبة الحياة ومرتبة النفس.فاما الزهد في الحياة فهو ترجمة لذود الخارجي عن اعتقاده بصحةمذهبه و تعبيره عن ايمانه بصدقه و ان كان في ذلك تخليه عن متع الحياة ولذاتها.بينما الزهد في النفس يمثل لدى الشاري ارقى صور الارتباط بالحزب والمذهب معا وذلك عن طريق بذل النفس في سبيل القناعة المذهبية التي تتاسس في نظرنا على تاويل مخصوص للنص الديني وتحليل موغل في التطرف للوقائع والأحداث السياسية.

[1] المرجع السابق ص 150
[2] المرجع السابق ص 151

فالزهد لدى الشراة تعبير جلي عن رفض الحياة بما تحويه من صور الظلم، والشهوات الزائفة، وتوجيه للنفس إلى سبل العفاف والقناعة ، وترغيب لها للانصراف عما يكدر صفوها، ولم يكن ذلك ممكنا في نظرهم إلا من خلال الثورة في وجه من ينابذهم.

إن الشعر الخارجي إذن،جامح في الزهد، جانح إلى الثورة، وإن ميله إلى هذا المسرب، يمكن تفسيره بأمرين اثنين: أولهما العصبية المذهبية، وتتجلى في الغلواء الذي مارسه الخوارج في تأويل النص الديني وما نتج عنه من أحكام متطرفة في مسائل مختلفة. وثانيهما العصبية الحزبية السياسية وتتمثل في رفض الخوارج المطلق لحكم الأحزاب السياسية الأخرى، واعتبارها مغتصبة للخلافة، لا تحكم بشرع الله، وفي هذا الحكم أيضا غلو وتطرف ساهما بشكل لافت في عزلة الخوارج، وما كان من سبيل لفرض وجودهم إلا اعلان التمرد سياسيا ومذهبيا وادبيا و من هذا المنطلق تتأتى أهمية تيمة الثورة في شعرهم وأدبهم.

ومن ثم نستنتج أن شعر الخوارج يمكن إدراجه في باب الأدب الملتزم، لأنه تعبير عن هوية الحركة الخارجية بمذاهبها المختلفة والمتناقضة أحيانا، و ترجمة لمكنون ضميرجمعي مبني على الرفض و فيه بقية من عصبية الجاهلية.فهو أدب ملتزم بالحركة فقط إما بالتأريخ للوقائع وإما بإبداء القناعات والتشبث بها ، إنه في عمومه شعر دعاية سياسية ومذهبية بامتياز. الأمر الذي أدى إلى انحصاره في مواضيع مخصوصة.كما أن اختلافه عن الشعر السياسي الاموي الخاص بالأحزاب الأخرى نابع من الاختلاف الذي يطال منظوره للخلافة و الحكم.وقد نتج عن هذا الأمر تفرد في المضامين الشعرية والرؤى السياسية والتأويلات الدينية على حد سواء.

إن اقتحام الأدب الخارجي لمجال السياسة بالشكل الذي أشرنا إليه،و خوضه في مسائل دينية بحتة جعله نتاجا أدبيا محظورا لا يحظى بالاهتمام لكونهيحمل فكرا ثوريا متمردا.ولعل من المظان التراثية القليلة التي اهتمت به كتاب "الكامل في اللغة والأدب" للمبرد، و كتاب " الأغاني " لأبي الفرج الأصفهاني، وكذا كتاب "البيان والتبيين " للجاحظ.لكن و في المقابل من ذلك،نجد مصنفات نقدية مرجعية مهمة لم تهتم به ككتاب " الشعر و الشعراء" لابن قتيبة الدينوري.

وقارئ اليوم مدعو دائما إلى النظر في النص التراثي باعتباره منفتحا ينبغي قراءته باستمرار وبطرق متعددة،و هذا التعدد على مستوى القراءات هو الذي سيفضي إلى تأويلات مختلفة تتباين باختلاف التجارب القرائية للدارسين.وشعر الخوارج ليس نصا أدبيا سياسيا فحسب، بل هو وثيقة تاريخية مهمة تعكس بوضوح فكرا سياسيا لاقلية معارضة في فترة من تاريخ الدولة الإسلامية. وبذلك بالنظر اليه اليوم ينبغي أن يكون أكثر انفتاحا و جرأة.

المصادر و المراجع المعتمدة:

- القرآن الكريم
- أدونيس، الثابت والمتحول، الأصول، دار العودة، بيروتط 2، 1979،م
- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، تاريخ الرسائل والملوك دار المعارف مصر، ط2.
- لطيفة البكاي، حركة الخوارج نشأتها وتطورها إلى نهاية العهد الأموي دار الطليعة بيروت، ط1، 2001م.
- الإمام وكيع بن الجراح،كتاب الزهد،ج1، مكتبة الدار، ط1، 1984م
- الإمام عبد الله بن المبارك المزوري، الزهد والرقائق، مج1، دار المعراج الدولية، ط1، 1995م.
- علي جفال، الخوارج تاريخهم وأدبهم، دار الكتب العلمية بيروت، ط 1، 1990م.
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين،ج2، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط7، 1998م.
- إحسان عباس، شعر الخوارج، دار الثقافة بيروت، ط2، 1994م.
- ابن منظور الافريقي، لسان العرب، مج1، دار المعارف، تحقيق عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله هاشم محمد الشادلي.

- حنة أرندت، في الثورة، ترجمة عطا عبدالوهاب، مراجعة رامز بورسلان،إعداد المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2008م.
- سهير القلماوي،أدب الخوارج في العصر الاموي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،1940م
- ناجية الوريمي بوعجيلة، الإسلام الخارجي، دار الطليعة بيروت، ط1، سبتمبر 2006.